أديب من الأزهر .. مصطفى لطفي المنفلوطي

د. أحمد هيكل

كان امتدادًا كريمًا لهذه السلسلة المباركة من رجالات الأزهر، الذين أسهموا بجهود ميمونة في صنع تاريخنا الحديث، من أمثال رفاعة الطهطاوي، ومُحَّمد عبده. ومثل الشيخين الرائدين المصلحين حرص المنفلوطي على ألا تقتصر جهوده على الميدان الثقافي وحده، بل أبى إلا أن يسهم في الميدان السياسي والإصلاحي أيضًا؛ ولذا نراه قد وظف أدبه بالتزام مبكر لخدمة وطنه وترقية أمته، أو بتعبير أشمل: للنضال من أجل شعبه.

كانت البلاد في تلك السنوات ترزح تحت نير الاحتلال البريطاني، الذي جثم على صدر مصر سنة ١٨٨٢، والمنفلوطي صبي قد بلغ من العمر نحو خمس سنوات، فعاش بقية صباه وكل شبابه وجل كهولته يتجرع مرارة هذا الاحتلال الكريه. وكان يساند الاحتلال في تلك السنوات خديو مصر، الذي أخذ يتغير لقبه فأصبح سلطانًا ثم ملكًا، ولكن حقيقته لم تتغير، كحاكم غريب عن تلك البلاد، كل همه أن يعيش سيدًا، وأن يؤازر من يساندون عرشه الذي تزعزعه دائمًا حركات الوطنيين الشرفاء.

وهكذا كان هناك اتفاق مصالح بين قوى الاحتلال وقوى القصر، وبخاصة بعد أن ثبت استدعاء الخديو توفيق للإنجليز، وضربه بهم لقوى الشعب الممثلة في الثورة العرابية. وظل هذا الاتفاق يتضح حينًا ويخفى حينًا آخر، ولكنه بقي حقيقة لا يمكن إنكارها لأنها موجودة أبدًا. وقد كان من الفترات التي شهدت خفاء هذا التآمر بين الاحتلال والقصر، تلك السنوات الأولى من عهد عباس حلمي الملقب بعباس الثاني. وذلك أن هذا الخديو حين جلس على العرش بعد توفيق، أراد أن يكسب المواطنين بإيهامهم أنه غير سلفه، وأنه في جانب الوطنيين لا في صف المحتلين.

ولتأكيد هذا الإيهام أخذ يقرب بعض الزعماء، كما راح يزور البلاد، ويبذل كثيرًا من المحاولات لكسب ثقة أبناء الشعب، لكنه ما لبث أن ظهر على حقيقته فعادى الحركة الوطنية، ونفذ رغبات الاحتلال، ووقف نهائيًا في صف أعداء الشعب. ثم تتابعت الأحداث، واشتدت حركة المقاومة الوطنية حتى تمثلت في ثورة سنة ١٩١٩، التي قادها سعد زغلول مكملًا رسالة مصطفي كامل، الذي قاد الحركة الوطنية في أول شبوبها عقب الاحتلال.

وانتهت ثورة سنة ١٩١٩ ببعض المكاسب التي تعتبر خطوة على طريق العمل الوطني، والتي في مقدمتها: صدور الدستور، وافتتاح البرلمان، وتأليف حكومة وطنية برياسة سعد زغلول سنة ١٩٢٤، وأن كانت الفرحة بهذه المكاسب لم تَطُل؛ نظرًا لتآمر الإنجليز والقصر على كل ما ربحه الشعب من ثورته. وهذا التآمر لا يتسع له هذا الحديث الذي قصدنا من التمهيد به مجرد تحديد للعصر الذي عاش فيه المنفلوطي وتأثر به وأسهم

في النضال بأدبه فيه. وهذا العصر الذي ينتمي إليه المنفلوطي ينتهي بهذه المرحلة من تاريخ مصر؛ لأن الرجل انتقل إلى جوار الله سنة ١٩٢٤.

ولد المنفلوطي بمنفلوط (إحدى بلدان صعيد مصر) سنة ١٨٧٦، وحين بلغ سن التعلم تردد على الكتاب فحفظ القرآن الكريم، وتعلم ما يؤهله للالتحاق بالأزهر، ثم انتقل إلى القاهرة، ودخل الأزهر، وحضر دروس الشيخ مُحَمَّد عبده. ولكنه اهتم بصفة خاصة بالأدب، فأخذ يقرأ روائع كتب التراث، وجيد مراجع الأدب العربي شعر ونثره، حتى غلبه حب الأدب على نفسه، فترك الأزهر بعد دراسة فيه استمرت نحو عشر سنين.

وكان المنفلوطي قد اتجه إلى الكتابة في الصحف متأثرًا بأستاذه مُحَمَّد عبده، ومستفيدًا من توجيهه. وبرز اسمه حين أخذ يكتب في صحيفة المؤيد، التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف منذ سنة ١٨٨٩، والتي كانت من كبريات الصحف الوطنية والإصلاحية ذات النزعة العربية الإسلامية.

وفي أول عهده بالأدب، كان المنفلوطي يكتب الشعر، وكان يسهم بهذا الشعر كما يسهم بالنثر في النضال، وقد بلغت به الشجاعة أن هاجم بقصيدة من قصائده الخديو عباس الثاني، بعد أن اتضح للمنفلوطي موقف الخديو وخداعه للشعب.

وقد وزعت هذه القصيدة في منشور يحمل اسم (الصاعقة)، بمناسبة حضور الخديو إلى القاهرة قادمًا من الإسكندرية، بعد رحلة داخلية كانت جريدة المؤيد تعني برصدها ووصف الاحتفالات بها. وتاريخ توزيع هذه القصيدة في منشور هو ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧، وهو اليوم التالي لعودة

الخديو، وهذه هي القصيدة:

قـــدوم ولكـــن لا أقـــول ســـعيد ... وملك -وإن طال المدى- سيبيد

بعدت وثغر الناس بالبشر باسم ... وعـدت وحـزن في الفـؤاد شـديد

تمـر بنـا لا طـرف نحـوك ناظـر ... ولا قلب من تلك القلوب ودود

عـلام التعـاني؟ هـل هنـاك مـآثر ... فنفـرح؟ أو سـعي لـديك حميـد؟

إذا لم يكـن أمـر ففـيم مواكـب؟! ... وإن لم يكـن نهـي ففـيم جنـود؟!

تـــذكرنا رؤياك أيام أنزلـــت ... علينا خطوب من جدودك سود

رمتنـا بكـم (مقـدونيا) فأصـابنا ... مصـوب سـهم بالـبلاء سـديد

فلمـا تـوليتم طغيـتم، وهكـذا ... إذا أصـبح التركـي وهـو عميـد

فكـم سـفكت منـا دمـاء بريئـة ... وكـم ضـمت تلـك الـدماء لحـود

وكم ضم بطن البحر أشلاء جمة ... تمـزق أحشـاء لهـا وكبـود!

وكـم صـار شمـل للـبلاد مشـتتًا ... وخـرب قصـر في الـبلاد مشـيد

وسـيق عظـيم القـوم منـا مكـبلًا ... لـه تحـت أثقـال القيـود وئيـد

فمـا قـام مـنكم بالعدالـة طـارف ... ولا سـار مـنكم بالسـداد تليـد

كـأني بقصـر الملـك أصـبح بائـدًا ... مـن الظلـم، والظلـم المبـين مبيـد

ويندب في أطلالـه اليـوم ناعيًـا ... لـه عنـد ترديـد الـرثاء نشـيد

أعبـاس ترجـو أن تكـون خليفـة ... كمـــا ود آباء ورام جـــدود؟!

فياليـت دنيـانا تـزول وليتنـا ... نكـون بـبطن الأرض حـين تسـود

وقد حوكم المنفلوطي -وهو في نحو العشرين- بسبب تلك القصيدة التي لا يقولها إلا فنان فدائي، وحكم عليه بالسجن اثني عشر شهرًا، وحين استأنف الأديب الحكم ونظرت القضية من جديد، خفف السجن إلى ستة أشهر.

تطوير النثر الحديث:

وقد عانى المنفلوطي كثيرًا بسبب هذه العقوبة، وظل بعد تنفيذها مبعدًا عن أي عمل حكومي، باعتباره غير متمتع بالصلاحية للوظائف لما في تاريخه من سابقة!

ولكن مسعى كريمًا من الشيخ مُحَمَّد عبده أعاد إلى الرجل بعد حين حقوقه الشخصية، وحين تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ عين المنفلوطي في وظيفة تتفق ومواهبه الأدبية، وهي وظيفة المحرر العربي بوزارة المعارف.

وكان سعد يعتز بالمنفلوطي ويعرف قدره في المجال الوطني والأدبي على السواء؛ ولذا نراه يتمسك به ويتصدى للمستشار الإنجليزى (دنلوب) حين حاول فصل المنفلوطي من وزارة المعارف؛ عقوبة له على هجومه على (روزفلت) الذي كان قد زار مصر، وأنكر حق المصريين في الاستقلال، فرد عليه المنفلوطي بمقال تحت عنوان (محاكمة روزفلت أمام محكمة العدل). وقد كان مما قاله سعد لـ(دنلوب) وهو يدافع عن المنفلوطي: "إن الحكومة في حاجة إلى مثل السيد مصطفى، وليس هو في حاجة إليها، والوظائف قبور للأدباء، وخير للحكومة أن يكون مثله داخلها".

وبلغ من اعتزاز سعد بالمنفلوطي أنه كان ينقله إلى حيث يعمل، فحين

عين وزيرًا للحقانية سنة ١٩١٠، نقل المنفلوطي معه، وأنشأ له تلك الوظيفة التي أنشأها له من قبل في وزارة المعارف. وحين انتخب سعد وكيلًا للجمعية التشريعية سنة ١٩١٢، أخذ المنفلوطي ضمن هيئة الأمانة. وبقي في الجمعية التشريعية حتى تأججت الثورة، وكتب مقالاته في القضية المصرية سنة ١٩٢١ مدافعًا عن سعد باشا ومنتصفًا له من خصومه السياسيين، وحينئذ فصله ثروت باشا من وظيفته، ثم صودر كتابه (النظرات) الذي كان يضم مجموعة من تلك المقالات.

وبعد نحو ستة أشهر رؤي استدراج الرجل وكسبه في صف القصر وأعوانه، من مناوئي الحركة الثورية أو المتاجرين بها، فعين في (سكرتارية) الديوان الملكي على أمل أن يكف عن الكتابة الوطنية والنضال بالكلمة الشريفة. ولكن الرجل ظل على ما كان عليه من قبل، فأخرج من وظيفته بالديوان بعد قليل، والحق بوظيفته بالجمعية التشريعية المعطلة، وظل في هذه الوظيفة التي هي أشبه بالتعطل، إلى أن جنى الشعب بعض ثمرات ثورته، وأسندت رياسة الوزارة إلى سعد زغلول، وافتتح البرلمان، وتولت قوى الشعب الوطنية الحكم، فحينئذ عين المنفلوطي رئيس فرقة في أمانة مجلس الشيوخ، وبقي في هذا المنصب إلى أن مات سنة ١٩٢٤.

وقد قام المنفلوطي بأعظم دور في تطوير النثر العربي الحديث، وإليه يرجع تخليص هذا النثر نهائيًا مما كان يتردى فيه من تفاهة وركاكة، رانت عليه طيلة عصور التخلف، وبخاصة في العهد التركي، الذي امتد نحو ثلاثة قرون. فقد أفاد المنفلوطي من روح الفترة التي عاشها، ومن اتجاه الفترة السابقة على فترته، حيث كانت هناك حركة أحياء لروائع التراث العربي

الذي خلفته عصور الازدهار، وكانت تلك الحركة نتيجة لهذا الوعي العميق بالماضي العربي المجيد، الذي يمكن أن يكون ركيزة لمستقبل رائع جديد. كذلك أفاد المنفلوطي من توجيهات أستاذه مُحَّد عبده، الذي دعا بإخلاص إلى تخليص النثر العربي من الزخارف والصنعة، وطالب الكتاب وبخاصة من كانوا تلاميذه أو عاملين معه، أن يترسلوا فيما يكتبون، وأن يتجهوا وجهة فنية جادة فيما يسطرون.

أصالة وطابع خاص:

ومن استيعاب المنفلوطي لروائع التراث النثري المترسل الذي سطره كبار الكتاب في عصور الازدهار، ومن توجيهات الأستاذ الإمام، ومن موهبة الرجل وأصالته، خرج بطريقة في الكتابة تعتبر المدرسة الأم لكل المدارس الفنية الأسلوبية في الكتابة العربية الحديثة.

وأهم معالم هذه المدرسة الأم: البعد عن التكلف، والنأي عن التقليد، والقصد إلى الصدق، والاهتمام بالصياغة، وجمال الإيقاع، ورعاية الجانب العاطفي، ثم الميل إلى السهولة والترسل، وترك التعقيد والمحسنات، فيما عدا بعض السجع المطبوع الذي يأتي بين الحين والحين للإسهام في موسيقى الصياغة.

وقد كانت طريقة المنفلوطي – برغم محافظتها واتخاذها النثر الجيد القديم مثلًا أعلى – طريقة إبداعية في كثير من جوانبها، ففيها أصالة المنفلوطي وعليها طابعه، وكل ما كتب بها موضوعات حية هي من تجارب الكاتب المرتبطة بنفسه وقومه وعصره، فهي طريقة في النثر أشبه بطريقة شوقي في الشعر، فيها محافظة من حيث اتخاذ القديم الجيد مثلًا أعلى في

الصياغة، وفيها تجديد من حيث تطوير الأديب وإضافاته، واتخاذ الإطار البياني المحافظ وسيلة للتعبير عن مشاعره هو، وتجاربه هو، وعصره هو، بحيث تتضح شخصيته كأجلى ما تكون، وتظهر المعاصرة في أسلوبه فلا تخطئها ألا عيون المكابرين.

وأهم آثار المنفلوطي التي تتمثل فيها طريقته: مقالاته التي جمع كثيرًا منها في كتابه (النظرات)، والتي تعالج موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية، ثم كتاباته القصصية، التي بعضها موضوع وبعضها معرب، وبعضها أعمال قصيرة كتلك التي جاءت في (العبرات)، وبعضها أعمال طويلة مثل (الفضيلة) و(مجدولين) و(الشاعر) و(في سبيل التاج). وهذه الكتابات القصصية كانت تترجم أولًا بأقلام بعض المترجمين، ثم يأخذها المنفلوطي فيعيد صياغتها بطريقته مع ألوان من التصرف تكاد تجعلها جديدة. وهكذا عرف المنفلوطي كناثر صاحب طريقة، وأعمل الشعر مكتفيًا بريادته لتلك الطريقة الفنية التي عرفت به، وأحدث بها في تاريخ النثر العربي وثبة كبرى.

وكانت مقالاته وكتاباته القصصية موضع حفاوة الجيل التالي لجيله، ممن كانوا على أول طريق الأدب أيام كان هو ذائع الصيت واضح الطريقة، حتى لقد قرر الأستاذ الزيات، أنه هو وصاحبه طه حسين ورفيقهما زناتي، كانوا ينتظرون مقال المنفلوطي بشوق شديد، كما كانوا يقبلون على قراءته بشغف بالغ. ومن هنا رأينا كلا من الكاتبين الكبيرين يأخذ وجهة أسلوبية جمالية فيما يكتب، وهما وإن انفرد كل منهما بطريقة خاصة نتيجة لأصالته وثقافته، فقد خرجا أولا من جبة المنفلوطي الذي وجههما وجهة أسلوبية جمالية، حتى أصبحا من كبار الكتاب الأسلوبيين.

مدرسة المرحلة الأولى:

وقد عيب على طريقة المفلوطي الاهتمام الشديد بالأسلوب، والفقر في الجانب الفكري، والمبالغة في اصطناع الأسى وإثارة العاطفة، ثم عدم الدقة في الاستعمال اللغوي أحيانًا، والميل إلى حشد المترادفات، والعبارات المكملة، والكلمات المؤكدة. وربما كان الكثير من ذلك حقًا، ولكن الحق أيضًا أن الكتابات التي خلفها هذا الكاتب بطريقتها الفنية، كانت أول اتجاه أسلوبي فني حديث، رد إلى النثر اعتباره، وجعل ينافس الشعر، وخرج آخر الأمر أعلام الكتاب الأسلوبيين، الذين يفخر بهم تاريخ أدبنا الحديث، كالزيات وطه حسين وغيرهما.

ولا يزال المنفلوطي يعيش بفنه إلى اليوم، برغم ما طرأ على أدبنا من تطورات وما جد فيه من اتجاهات، ولا يكاد يشذ أديب – بعد جيل المنفلوطي – عن التلمذة على هذا المعلم الرائد.

حقيقة لا يكتفي أي أديب بالوقوف عند مرحلة كتابات المنفلوطي وهو يتعلم الأدب، ولكنه لا يمكن أن يتخطى تلك المرحلة دون أن يقف عندها. فكتابات المنفلوطي – في أقل تقدير – بمثابة مدرسة المرحلة الأولى لكل من يريد أن يتعلم فن الكتابة، ولا بد من أن يعيش المتعلم حينًا على عطائها رائع السذاجة، طفلي الروح، ثم يعبر منها إلى مراحل أخرى أكثر نضجًا وأبعد عمقًا.

وإن من الوفاء لأدبنا الحديث أن نذكر رواده الذين عبدوا الطريق كالمنفلوطي. وإن من مظاهر هذا الوفاء المسعد أن يلتفت بعض شبابنا الجامعي الواعي إلى دراسة المنفلوطي والعناية بأدبه، وفي هذا الميدان يطيب

لي أن أنوه بالباحث الجاد (الدكتور مُحَمَّد أبي الأنوار) الذي جعل المنفلوطي وأدبه موضوع رسالته للماجستير، والذي جمع بعد ذلك من نصوص أدبه كثيرًا مما لم ينشر، وبخاصة هذا الشعر الذي خلفه المنفلوطي متناثرًا بين صحف عهده.

وقد أفدت كثيرًا مما جمع هذا الباحث الدقيق، الذي قدم إلي طائفة من النصوص والحقائق بسخاء نفس يستحق أطيب الثناء.

رحم الله المنفلوطي، وجزاه عن لغتنا وأدبنا ووطننا وتاريخنا الحضاري الحديث أكرم الجزاء.